الباب الثانى

العالم الثالث : قضايا ومشكلات

الفصل الثالث

الإمبريالية والتخلف

مقدمة :

تعد قضية الإمبريالية واحدة من أهم وأعقد قضايا عالمنا المعاصر . ويبدو ذلك واضحا من خلال النظريات والدراسات العديدة التى تناولت هذه القضية سواء على المستوى النظرى الأكاديمى أو المستوى التطبيقى العملى . والواقع أن الاهتمام الحقيقى بالإمبريالية قد بدأ منذ مطلع القرن العشرين حينما بدأت القوى الأوربية العظمى فى تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ محددة . بيد أن هناك اهتماما جديدا بالإمبريالية قد ظهر خلال خمسينيات هذا القرن ، خاصة بعد حصول كثير من الدول النامية على استقلالها السياسى . إذ بدا واضحا أن هذا الاستقلال السياسى لا يعنى بالضرورة التحرر الكامل من السيطرة الأجنبية . لذلك ظهر الاستقلال الاقتصادى كمطلب أو دعامة لتحقيق الاستقلال السياسى . ولقد اتخذ الاهتمام الحديث بالإمبريالية أشكالا عديدة . فعلى سبيل المثال نجد بعض المؤرخين البريطانيين يميلون إلى إقامة حوار مع التصورات المبكرة للامبريالية التى قدمها لينين Lenin وهوبسون Hobson.فلقد ذهبا إلى أن أوربا قد دخلت مرحلة جديدة ابتداء من سبعينيات القرن التاسع عشر وذلك بفرض سيطرتها على المستعمرات ، وأن تقسيم أوربا للقارة الأفريقية ابتداء من تلك الفترة كان بسبب التطورات والظروف الداخلية التى تعرضت لها أوربا ذاتها . ولقد تعرضت تصورات لينين وهوبسون لانتقادات عديدة . من ذلك أن تقسيم أفريقيا لم يتم نتيجة لدوافع اقتصادية بقدر ما تم نتيجة لعوامل استراتيجية[1] . كذلك نجد اهتماما حديثا بمناقشة الجوانب الاقتصادية للامبريالية . فلقد ذهب مايكل براون Brown وهارى ماجدوف Magdoff إلى أن « الإمبريالية الجديدة » التى ظهرت خلال سبعينيات القرن التاسع عشر لا تشير فقط إلى حجم رؤوس الأموال التى انتقلت من أوربا إلى الخارج بهدف الاستثمار كما

---

(١) Robinson; R; Gallagher; J; Denny; A;Africa and the Victorians; The Official Mind of Imperialism; London; Macmillan; 1961.

يؤكد ذلك هوبسون ، ولكنها تشير أيضاً إلى زيادة المنافسة الدولية مما أدى إلى سعى القوى الأوربية لحماية أسواقها فى الخارج وضمان الحصول على المواد الخام اللازمة لصناعتها[٢] . وهنا نجد بول باران Baran وأندرفرانك Frank يوضحان الضغوط المختلفة التى خضعت لها دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية خلال الفترة الاستعمارية ، مما ساعد على ربطها بالنظام الاقتصادى العالمى . وخلال تلك الفترة تحولت هذه الدول إلى مجرد « مستودع » للمواد الخام الضرورية للصناعة الغربية ، مما يعنى بالتالى عدم توافر الظروف الملائمة لتحقيق تقدم اقتصادى واستقرار سياسى لهذه الدول [٣] .

وبرغم كثرة الكتابات التى تناولت الإمبريالية فى علاقتها بالدول المتخلفة ، إلا أننا نلحظ فيها قدرا كبيرا من الخلط والغموض . فليس هناك اتفاق كامل حول معنى كلمة الإمبريالية ذاتها أو المظاهر التى تعبر عنها . ففى بعض الكتابات تستخدم الإمبريالية للإشارة إلى كل الإمبراطوريات فى كل العصور ، وفى كتابات أخرى نجد المعنى يضيق ليقتصر على الإشارة إلى الإمبراطوريات الاستعمارية التى ظهرت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . كذلك نلحظ داخل التراث الماركسى استخداما متضاربا للمفهوم[٤] . ففى بعض الأحيان يشار إلى الإمبريالية على أنها أعلى مراحل الرأسمالية (وبالتالى فهى تشير إلى مجموعة من العلاقات تنشأ بين دول مختلفة) . وفى أحيان أخرى تستخدم لوصف العلاقات السائدة بين الدول الرأسمالية الغربية ودول العالم الثالث . ويزداد التضارب حدة إذا ما أخذنا فى الاعتبار الجوانب النظرية للكتابات التى تناولت الإمبريالية ، خاصة وأننا قد أصبحنا فى مواجهة عدد كبير من النظريات التى تحاول اكتساب الطابع العلمى الدقيق . هنا تنشأ مشكلات نظرية ومنهجية عديدة تتعلق بأساليب التحقق الإمبيريقى ، ومدى صدق الشواهد الواقعية ، فضلا عن النطاق الذى تغطيه النظرية . وتزداد هذه المشكلات حدة إذا ما علمنا أن قضية الامبريالية ترتبط بالأيديولوجية ارتباطا كبيرا . إذ أن أى تحليل للتأثير الذى تمارسه الدول المتقدمة على الدول المتخلفة (أو المستعمرات) يخضع بطبيعة الحال للمنطلقات الفكرية التى ينطلق منها الدارس . ويكفى فى هذا المجال أن نقارن بين تحليل مفكر ليبرالى مثل هوبسون وآخر ماركسى مثل لينين لنتعرف على مدى اختلاف النتائج التى يمكن التوصل إليها نتيجة

---

(٢) Magdoff; H. The Age of Imperialism: The Economics of U S Foreign Policy; New York; Monthly Review Press. 1969.

(٣) Baran; P; The Political Economy of Growth; New york; Monthly Review press; 1962.

(٤) Lichtheim; G; Imperialism; Harmondsworth: Allen Lane the Penguin Press: 1971. pp. 12 ff.

لاتخاذ منطلقات فكرية متباينة .

ومنذ أن ظهر الاهتمام بقضية الامبريالية وهناك محاولات جادة للتوصل إلى استنتاجات نظرية تعبر عن ديناميكيتها وتحولاتها . فحتى وقت قريب كانت النظرة الماركسية تمثل مصدرا رئيسيا لمناقشة الإمبريالية . والواقع أن مفهوم الإمبريالية – شأنه شأن مفهوم الرأسمالية – يرتبط بنظرية اجتماعية – اقتصادية كبرى تتناول عددا كبيرا من المجتمعات خلال حقب تاريخية واسعة . بيد أن هذا التصور لم يعد يصمد كثيرا فى مواجهة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى يشهدها عالمنا المعاصر ، مما حدا ببعض المفكرين الماركسيين إلى إعادة النظر فى كثير من المسلمات التى انطلقوا منها فى تحليل العلاقات الدولية خاصة تلك التى تربط الدول المتقدمة بالدول المتخلفة . ن أية نظرية عامة كالماركسية تمثل نظرة معينة للوقائع والأحداث ، وطريقة محددة لجمعها وتصنيفها . ولابد أن تعكس عملية جمع الوقائع قدرا معينا من الانتظام وعدم الانتظام اللذين يجب أن يخضعا بدورهما للتحليل والتفسير . ويترتب على ذلك ضرورة صياغة مجموعة من الفروض التابعة للنظرية العامة . وقد نجد أن النظرية تقدم تفسيرا مرضيا للوقائع والأحداث أو أنها قد لا تستوعب كل المعطيات مما يكشف عن جوانب قصور واضحة . ولقد أوضح كار Carr أن القيمة الحقيقية لأية نظرية عامة تتمثل فى الفروض التى تطرحها أو توحى بها[٥] . كما أشار إلى ذلك أيضاً كارل بوبر Popper فى معرض نقده للتنبؤات التى يمكن أن نحصل عليها من خلال دراسة التاريخ ، حينما ذكر أن كل العلماء الاجتماعيين ينطلقون فى دراساتهم من نظرية معينة[٦] . ولسنا بحاجة إلى توضيح الأسس العامة للنظرية الماركسية ، فلقد بسطها ماركس بوضوح شديد فى مقدمة كتابه « إسهام فى نقد الاقتصاد السياسى »[٧] . وتتلخص هذه النظرية فى أن التكوينات الاجتماعية تتحدد – خلال الحقب المتتابعة – من خلال أساليب الإنتاج السائدة فيها ، وأن الأخيرة (أى أساليب الإنتاج) تتوقف على مستوى معين من التكنولوجيا (أو ما أطلق عليه ماركس « قوى الإنتاج ») . كل ذلك يشكل الأساس الحقيقى الذى يستند إليه البناء الفوق بما يضمه من نظم سياسية وقانونية وبما يعكسه من وعى اجتماعى . أما التغيرات الثورية فتنشأ حينما يتعارض تقدم التكنولوجيا مع البناء الاقتصادى القائم . ومن ذلك

---

(٥) Carr; E; H; What is History? London; Macmillan; 1961; p. 101.

(٦) Popper; K; The Poverty of Historicism; London; Routledge; 1957. 1957.

(٧) Marx; K; Preface to Contribution to the Critique of Political Economy; University of Chicago Press p.11.

يبدو واضحا أن الماركسيين يميلون إلى جمع وقائع عن مجتمعات تنتمى إلى حقب تاريخية مختلفة ، ويهتمون بالتعرف على نمط علاقات الملكية السائدة من أجل رسم صورة أدق لتاريخ المجتمع البشرى وموقع الإنسان داخله .

ومن الطبيعى أن تحتل الامبريالية مكانة بارزة داخل النظرية الماركسية . فلقد تناول ماركس نمو الرأسمالية الأوربية خلال القرن التاسع عشر وتأثير ذلك على المستعمرات . وعلى الرغم من أن كلمة الإمبريالية لم تدخل اللغة الإنجليزية قبل خمسينيات القرن التاسع عشر ، إلا أنها ما لبثت أن استخدمت لوصف السيطرة الغربية على مختلف أنحاء العالم . والواقع أن ماركس نفسه لم يستخدم فى كتاباته مصطلح « الإمبريالية » لوصف السيطرة التى مارستها الرأسمالية الغربية ، ولكنه كان يميل إلى استخدام مفاهيم عامة تعبر عما يريد مناقشته . وأغلب الظن أن مفكرين وسياسيين مختلفين هم الذين بدأوا يروجون لاستخدام مصطلح الإمبريالية وذلك ابتداء من سبعينيات القرن التاسع عشر . ومن بين هؤلاء دزرائيلى Disraeli وكارنارفون Carnarvon خلال السبعينيات ، والإمبرياليين خلال الثمانينات ، ونشمبرلين Chamberlain ورودس خلال التسعينيات [٨] . أما هوبسون Hobson الذى كتب أول نقد أساسى للامبريالية فى مطلع القرن العشرين فقد أشار إلى أنها تسعى إلى تصدير رؤوس الأموال للخارج بهدف الحصول على استثمارات أكثر ربحا من تلك التى توجد داخل الدول الأوربية [٩] . بيد أن عملية انتقال رؤوس الأموال البريطانية التى أشار إليها هوبسون لم تشمل المناطق الجديدة التى دخلت نفوذ الإمبراطورية البريطانية آنئذ . فعلى سبيل المثال كانت كمية رؤوس الأموال البريطانية المتجهة إلى الهند أقل بكثير من تلك المتجهة إلى أمريكا الجنوبية [١٠] . ولقد أوضح شومبيتر Schumpeter - معارضا بذلك كثير من الماركسيين - أن العلاقة بين الرأسمالية والإمبريالية لم تكن قوية جدا فى مطلع القرن العشرين [١١] . وعلى أية حال فلقد تعددت مبررات السيطرة الأوربية على المستعمرات ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر . فعلى سبيل المثال نجد شومبيتر يفسر التوسع الأوربى فى ضوء الأزمات التى شهدتها الرأسمالية الصناعية ذاتها ، كما نجد تشمبرلين يفسرها فى ضوء التوازن الدولى وخلق نظام عالمى متكامل . ومن الطبيعى أن نجد مبررات عديدة لذلك تفسر سيطرة الفرنسيين والبلجيكيين على أفريقيا ،

---

(٨) See: Bodelsen C; Studies in Mid-Victoran Imperialism; London; Heinemann; 1960.

(٩) Hobson; J; A; Imperialism; a Study; Allen & Unwin; 1938.

(١٠) Schumpeter; J; The Sociology of Imperialism; New York; 1951.

(١١) Ibid; p. 112.

وهيمنة الفرنسيين والهولنديين على جنوب شرق آسيا ، والضغوط التى مارستها – ولا تزال الولايات المتحدة على دول أمريكا الجنوبية . ولم تكن القوى الأوربية والأمريكية لتستطيع ممارسة سيطرتها على المستعمرات دون الاستعانة بالتكنولوجيا المتقدمة وعلى الأخص فى مجال الأسلحة .

أولا : الإمبريالية فى ضوء النظرية الماركسية – تحليل نقدى

يصعب فهم التحليل الماركسى للإمبريالية دون التعرف على نموذج الاقتصاد الرأسمالى كما يتبدى فى كتابات كارل ماركس . ويمكن التعبير عن هذا النموذج فى شكل صيغة هى : النقود – السلع – النقود . فالذين يمتلكون النقود (رأس المال) يحولونه إلى سلع من أجل الحصول على مزيد من النقود . ويعتقد ماركس أن هذه الدورة الاقتصادية هى التى تحكم رؤوس الأموال . ففى الرأسمالية الصناعية لا تتكون رؤوس الأموال من الأرباح الناجمة عن الاستهلاك فقط ، ولكنها تتكون أيضاً – وبدرجة أكبر – من خلال استغلال العمل وإخضاعه لشروط تعاقدية قاسية . ومعنى ذلك أنه يتعين على المصانع – فى ظل المجتمع الرأسمالى – زيادة أرباحها حتى تستطيع تكوين رؤوس أموال جديدة فضلا عن الاستيلاء على جزء من أرباح العاملين فيها . ولكى يتحقق ذلك يتعين على هذه المصانع تجديد آلاتها ومعداتها حتى تستطيع توسيع نطاق أسواقها . ومن الواضح أن المنتج الذى يمتلك أساليب تكنولوجية متقدمة يتمكن من تحقيق أقصى فائدة من الاقتصاد الحر ، بينما يجد المنتج الذى يستخدم أساليب تكنولوجية أقل تطورا ضرورة حماية نفسه بشتى الوسائل . وفى ظل الاقتصاد الرأسمالى الحر تخضع المنافسة الاقتصادية لشروط معينة تكون عادة لصالح الأقوياء ، مما يزيد من فرص تراكم رؤوس الأموال وزيادة فرص الاستثمار . وفضلا عما سبق يؤكد ماركس أن كل زيادة فى الأرباح تحققها المصانع تكون – فى معظم الأحيان – على حساب القوة الشرائية للجماهير ، مما يؤدى بالمجتمع الرأسمالى إلى ولوج مرحلة الإنتاج الوفير الذى يتجاوز احتياجات الاستهلاك . والنتيجة الحتمية المترتبة على كل ما سبق زيادة استقطاب رؤوس الأموال ، بمعنى أن تحتكر المصانع والشركات الكبرى النشاط الاقتصادى وتتحول الجماهير إلى قطاعات مستغلة اقتصاديا ، منهكة جسميا ، مشلولة فكريا[١٢] .

---

(١٢) ولقد عبر ماركس عن ذلك قائلاً : «إن تراكم رأس المال لدى أحد القطبين (الرأسماليين) يعنى فى نفس الوقت تراكم البؤس والشقاء والجهل لدى القطب الآخر (العمال)» انظر :

Marx; K; Capital; vol. III, Lawrence & Wishart, 1962. Section 4

ولقد جاءت وجهات نظر ماركس الاقتصادية فى إطار نظريته المادية لتاريخ المجتمع الإنسانى ، حيث نجده يهتم بإبراز الصراع أو التناقض بين تقدم وسائل الإنتاج (وعلى الأخص التكنولوجيا) من ناحية ، والعلاقات الاقتصادية الإنتاجية من ناحية أخرى ، ذاهبا إلى أن كل النظم السياسية والعسكرية والقانونية والأخلاقية إنما هى انعكاس لنمط الإنتاج السائد فى كل مرحلة تاريخية . وعلى الرغم من أن ماركس قد أوضح بجلاء العوامل المحركة للتاريخ الإنسانى ، إلا أنه قد سلم بأن بقايا المرحلة القديمة وبشائر المرحلة الجديدة قد يلعبان دورا هاما فى تشكيل الوعى الاجتماعى [١٣] . وفى ضوء هذه التصورات نجد ماركس يصوغ بعض الأحكام العامة التى تتعلق بالعلاقات الدولية خلال القرن التاسع عشر . فهو يعتقد أن ثمة هوة متزايدة بين الدول الأوربية الصناعية من ناحية ودول المستعمرات من ناحية أخرى فيما يتعلق بإمكانيات النمو الاقتصادى ، وأن هذه الهوة تتدعم بفضل انتقال رؤوس الأموال من الأولى إلى الأخيرة ، ثم تزداد تدعيما باحكام السيطرة على دول المستعمرات وإخضاعها تماما للغزو الاقتصادى وعلى الأخص خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر . ويصاحب ذلك كله نمو المنافسة الاقتصادية بين الدول الأوربية والرغبة فى تطوير القوة العسكرية من أجل دعم الهيمنة الاقتصادية . ويستمر هذا الاتجاه لتظهر شركات دولية ضخمة من خلالها تتمكن الدول الصناعية من فرض قواها السياسية والعسكرية والاقتصادية .

وتبدو وجهات نظر ماركس فى الإمبريالية أكثر وضوحًا إذا ما تأملنا كتاباته عن التوسع الرأسمالى فيما وراء البحار وعلى الأخص مقالاته عن الهند وتحليلاته للتجارة الخارجية كما وردت فى المجلد الثالث من مؤلفه « رأس المال »[١٤] . إذ أنه يعتقد أن التقدم العسكرى والنفوذ السياسى اللذان حققتهما بريطانيا فى منتصف القرن التاسع عشر كانا مرتبطين أوثق الارتباط بنظام التجارة الحرة . ومعنى ذلك أن الاقتصاد الرأسمالى كان هو الوسيلة الأساسية لزيادة الربح وبالتالى نمو المشروعات الاقتصادية . كما أن هذا النمط من الاقتصاد هو الذى أدى إلى زيادة الاستقطاب الطبقى ، بمعنى زيادة التفاوت الاقتصادى بين من يملكون رؤوس الأموال ومن لا يملكون سوى جهودهم البدنية والفكرية . والنقطة التى تبدو هامة فى هذا المجال هى أن ماركس قد سلم بأن أى تكنولوجيا جديدة أو مستحدثة تعنى – فى نفس الوقت – تقليل عدد العمال الذين يقومون بالعملية

---

(١٣) Lichtheim; G; Imperialism; Harmondsworth: Allen Lane the Penguin Press; 1971

(١٤) يمكننا أن نجد تجميعاً لهذه الكتابات فى :

Marx; K; and Engels; F; On Colonialism; London; Lawrence & Wishart; 1960.

الإنتاجية مما قد يؤدى فى المدى البعيد إلى انخفاض الأجور . ولا يستطيع الاقتصاد الرأسمالى مواجهة هذا المأزق إلا بالاتجاه خارج الحدود وهو المبرر الوحيد للاستعمار . ولقد عبر ماركس عن ذلك بقوله : « حينما أصبحت صناعة الغزل والنسيج صناعة أساسية فى بريطانيا العظمى ، تحولت الهند إلى منطقة استراتيجية . وحتى تتمكن بريطانيا من إحكام سيطرتها على الهند أحدثت تغييرات هامة على النظام الاقتصادى الهندى فازدادت نسبة الإقطاعيين وانهارت معالم الصناعة الوطنية »[١٥] . وفى كتاب « رأس المال » نجد ماركس يبسط وجهة نظره قائلاً : « إن التجارة الخارجية تعمل بالضرورة على توسيع نطاق الإنتاج ، ذلك أن نموذج الإنتاج الرأسمالى يعتمد على مجموعة من الضرورات أهمها اتساع الأسواق . كما أن رؤوس الأموال المستثمرة فى المستعمرات تستطيع تحقيق معدلات ربح عالية بسبب تخلف نمط الإنتاج فيها وتوافر البيئة الملائمة للاستغلال الصريح »[١٦] .

ومن الواضح أن ماركس كان يقصد بعباراته السابقة أن الإمبريالية تتخذ أشكالا عديدة خلال توسعها ومد نفوذها . ففى البداية ارتبطت مصالح التجار بمصالح كل من الجيش والأرستقراطية لتتشكل فى النهاية شركة الهند الشرقية ، وهو الارتباط الذى اعتبره شومبيتر Schumpeter فى فترة لاحقة أحد الجوانب السوسيولوجية الضرورية لفهم الإمبريالية فى إطارها التاريخى . ومن نتائج ذلك ظهور تقسيم العمل على المستوى الدولى بحيث أصبحت المستعمرات بمثابة « المزارع » والدول الصناعية بمثابة « المصانع » . ولقد عبر ماركس عن ذلك قائلا : « ظهر تقسيم عمل دولى جديد يتلاءم مع مصالح المراكز الرئيسية للصناعة الحديثة ، بحيث أصبح أحد أجزاء الكرة الأرضية مخصصا للإنتاج الزراعى والآخر للإنتاج الصناعى »[١٧] . ومن الطبيعى فى ظل هذا الشكل من تقسيم العمل أن تمارس الدول الصناعية (المسيطرة اقتصاديا وعسكريا) سيطرة واضحة على المستعمرات . بيد أن ماركس لم ينكر فى نفس الوقت أن تقوم الدول الصناعية بتنفيذ بعض المشروعات الهامة فى المستعمرات كالسكك الحديدية ، وشق الطرق ، وإقامة الموانى . والواقع أن الدول الصناعية حينما تفعل ذلك إنما تكرس استغلالها حتى تستطيع تحقيق أكبر فائدة اقتصادية[١٨] ، ومعنى ذلك أن ماركس قد سلم بأن انجلترا قد حققت فى الهند مهمة

---

(١٥) Ibid; p. 48

(١٦) Marx; K; Capital; Vol III; op. cit;

(١٧) Marx; K; Capital; Vol II; Section 7.

(١٨) ناقشنا هذه النقطة فى موضع سابق من هذا الكتاب وعلى الأخص فى مناقشتنا لمفهوم التنمية الرأسمالية عند ماركس .

مزدوجة . فمن ناحية أدخلت بعض المشروعات الهامة وعلى الأخص تلك المتعلقة بتدعيم السيطرة كوسائل الاتصال ، لكنها – من ناحية أخرى – عملت على تقويض الصناعات المحلية وإضعاف الروح الجماعية التى كانت تسيطر على القرية الهندية .

على أن التطورات اللاحقة التى مرت بها الدول الأوربية والولايات المتحدة قد فرضت على بعض الدارسين ضرورة إعادة النظر فى بعض الأحكام التى صاغها ماركس . فمنذ بداية سبعينيات القرن التاسع عشر وحتى نهايته تفوقت كل من الولايات المتحدة وألمانيا على بريطانيا فى مجال الإنتاج الصناعى ، كما بدأت بعض الدول الأوربية الأخرى وكذلك اليابان فى تدعيم سياسات التصنيع والتنمية الرأسمالية بوجه عام[١٩] . ولم تكن لتستطيع هذه الدول تحقيق التنمية دون مساعدة حكوماتها وحماية منتجاتها عن طريق فرض الضرائب على السلع الأجنبية . وهكذا بدأت بريطانيا تواجه منافسة اقتصادية حادة من جانب قوى أخرى . والمحقق أن هذه التطورات هى التى دفعت هيلفردج Hilferding إلى إعادة النظر فى بعض المفاهيم الماركسية الكلاسيكية . فلقد انطلق من وجهة نظر ماركس الذاهبة إلى أن تركز رؤوس الأموال قد ارتبط بزيادة الإنتاج وبالتالى تحكم الرأسماليين فى ملكية وسائل الإنتاج . ولقد وجد هيلفردج أن البنوك فى كل من ألمانيا والولايات المتحدة قد لعبت دورا هاما فى تنمية رؤوس الأموال وتوجيهها لخدمة الأغراض الصناعية ، بينما لم تلعب (أى البنوك) مثل هذا الدور فى دولة كبريطانيا . وفضلا عن ذلك يعتقد هيلفردج أن سياسة الحماية الاقتصادية التى مارستها الحكومتان الألمانية والأمريكية قد دعمت الوضع الاحتكارى الذى لعبه رأس المال ، مما منحه مزيدا من القوة لفرض نفوذه خارج الحدود[٢٠] .

والملاحظ أن هيلفردج قد اهتم كثيرًا بالبرهنة على وجود تنمية قومية رأسمالية ، وأن هناك صراعا متزايدا داخل الاحتكارات القومية ، ذلك الصراع الذى اعتبره « أعلى مراحل الرأسمالية » . وتتخذ هذه الاحتكارات أشكالا عديدة لعل أهمها الشركات المساهمة الضخمة التى تمارس أعمالها على مستوى دولى ، مما يشجع الدول التى تنتمى إليها هذه الشركات على حماية المصالح الخاصة والعامة بتدعيم قدراتها العسكرية . بيد أن هيلفردج قد وجد نفسه فى موضع آخر قريبا جدا من ماركس حينما ذهب إلى أن الرأسمالية الأوربية سوف تنمى – بطبيعتها – روح المقاومة والمعارضة لدى شعوب المستعمرات ، وأنها (أى الرأسمالية) سوف تمنح هذه الشعوب الوسائل

---

(١٩) Baran; P; The Political Economy of Growth; New York; Monthly Review Press; 1957

(٢٠) Hilferding; R; Finance Capital; A Study of Th... Recent Development of Capitalism. Berlin; 1955.

والأساليب التى تمكنها من تحقيق استقلالها[٢١] . والواقع أن أفكار هيلفردج قد أحدثت تنوعا وتباينا داخل الفكر الماركسى الكلاسيكى ، خاصة ما تعلق منها بتفسير النمو الرأسمالى على مستوى قومى سواء فى دول العالم الرأسمالى أو المستعمرات . ونتيجة لذلك ظهرت مناقشات عديدة تراوحت بين تأييد هذه الأفكار ورفضها أو التحفظ عليها . ويمكننا اعتبار وجهات نظر روز لوكسمبورج Rosa Luxemburg ولينين Lenin وتروتسكى Trotsky بمثابة حوار هام مع القضايا التى أثارها هيلفردج .

أما نظرية روزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg فى الإمبريالية فقد تعرضت لانتقادات عنيفة من جانب الماركسيين بسبب بساطتها المفرطة واستنادها إلى أخطاء لا يمكن قبولها . ولقد حاولت روزا لوكسمبورج البرهنة على أن « تراكم رؤوس الأموال يصبح مستحيلا فى النظم الرأسمالية المغلقة » ، لأنها (أى روزا) قد افترضت أن الاستهلاك لا يزيد بزيادة الاستثمار [٢٢] . وواقع الأمر أن الاستهلاك يزداد بزيادة الإنتاجية ، وهو الأمر الذى جعل ماركس يؤكد بأن عدم التناسب بين الاستثمار والاستهلاك وارتفاع إنتاج أساليب الإنتاج يمكن أن يؤدى إلى أزمات داخل النظام الرأسمالى . لقد استطاعت روزا لوكسمبورج البرهنة على استحالة تحقيق تراكم رؤوس الأموال بسبب زيادة الاستهلاك لأنها قد افترضت منذ البداية ان معدلات الاستهلاك لن تزداد . ومن بين الأخطاء التى وقعت فيها روزا لوكسمبورج إصرارها على معالجة الاقتصاد العالمى (والقومى أيضًا) بوصفه نظاما يتضمن مجموعة من القواعد التى تحكمه وتنظمه بطريقة ذاتية . وربما كان ماركس محقا حينما أشار إلى هذه النقطة حيث كانت حكومات الدول الرأسمالية لا تتدخل إلا بالقدر الضئيل فى تنظيم الاقتصاد العالمى . أما هيلفردج فقد أشار إلى موقف تتدخل فيه الدول الرأسمالية من أجل وضع مبادىء لاستقرار النظام الاقتصادى العالمى ، بينما تزداد – فى نفس الوقت – المنافسة الاقتصادية بين هذه الدول . أما روزا لوكسمبورج فقد أشارت إلى استمرار وجود الأزمة الاقتصادية العالمية برغم تدخل الدول الرأسمالية الكبرى . وفى هذا المجال نجد تشابها ملحوظا بين أفكار كل من روزا لوكسمبورج وماركس فيما يتعلق بسيطرة القوى الرأسمالية الاستعمارية على المستعمرات الفقيرة التابعة . ويبدو أن أحد الأخطاء البارزة التى وقعت فيها روزا لوكسمبورج تصورها بأن انهيارا آليا محتما سوف يحدث للاقتصاد الرأسمالى ككل ، وهى بذلك

---

(٢١) Ibid; p. 300.

(٢٢) Rosa Luxemburg: Accumulationof Capital; ed. Joan Robinson (London; Routledge; 1951); especially Robinson's introduction.

تعارض وجهة نظر ماركس الذاهبة إلى أن الاستقطاب (فى مجالى الثروة والفقر) هو الذى سيؤدى – حتما – إلى القضاء على النظام الرأسمالى العالمى[٢٣] . وبرغم ذلك فلقد أشارت روزا لوكسمبورج فى مواضع متفرقة من كتابها إلى أن عملية الاستقطاب تحدث بالفعل على نطاق عالمى ، بمعنى أن الأمم الغنية تزداد غنى ، والأمم الفقيرة تزداد فقرا[٢٤] .

ولقد أثارت روزا لوكسمبورج قضية هامة لاتزال حتى الآن موضعا للجدل ، حيث ذهبت إلى أن القومية تعد عائقا يحول دون نمو الاشتراكية[٢٥] . وهنا نجدها تتفق مع هيلفردج حول نقطة هامة هى ، أن المنافسات الاقتصادية القومية تؤدى إلى نشوب الحروب . لكن روزا ما تلبث أن تختلف مع هيلفردج حول الإمكانيات الثورية المحتملة التى تملكها شعوب المستعمرات . فلقد توقعت – متفقة فى ذلك مع هوبسون Hobson – أن تشهد هذه الشعوب وعيا قوميا يحول دون ظهور وعى اشتراكى . ونظرا لكونها شعوبا فقيرة ، فإنها قد تثور ضد الدول الغنية . ومن خلال الوعى القومى العميق يتعرض الوعى الطبقى للضعف الشديد . والواقع أن وجهة نظر روزا فى هذا المجال تنطوى على رؤية مستقبلية صادقة إلى حد بعيد ، خاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار دول وسط أوربا فى ذلك الوقت . إن الاشتراكية فى نظرها لا تعنى شيئا ، إلا إذا تم التغلب على الحدود المفروضة على الدول التى تشكل قوميات مستقلة .لذلك نجدها تنظر إلى رغبة الشعوب الروسية والنمساوية فى تقرير المصير (وهو الأمر الذى شجعه ماركس وانجلز من ناحية واحتواه لينين من ناحية أخرى) على أنها بمثابة إضعاف للولاء الطبقى وعلى الأخص الطبقة العاملة[٢٦] .

ولم تجد آراء روز لوكسمبورج نصيرا لها داخل الحركات الاشتراكية الروسية والبولندية والألمانية ، كما أن التطورات المقبلة للأحداث قد أثبتت افتقاد هذه الآراء لكثير من الصدق . ففى أوربا ازدادت القومية قوة فوق قوة ، كما أن التطبيق الاشتراكى فى روسيا لم يستطع تجاهل فكرة القومية على حساب فكرة الطبقة . وبعد الحرب العالمية الثانية وظهور حركة التحرر الوطنى انضمت إلى الأمم المتحدة أكثر من ستين دولة تعبر جميعها عن مشاعر قومية قوية . ولم يعد لدى أنصار روزا من شىء سوى ترديد الفكرة القائلة بأن الثورة الاشتراكية يجب أن تكون عالمية وإلا انسحبت عنها

---

(٢٣) Avineri: S. Karl Marx On Colonialism and Modernization: New York Doubleday: 1968.

(٢٤) Rosa Luxemburg, op. cit. pp. 348 ff.

(٢٥) See J.P. Nettle; Rosa Luxemburg London; Oxford Univ. Press, 1966

(٢٦) Nadel. H; and Curtis; P (eds.) Imperialism and Colonialism; New York; Macmillan 1964.

صفة الثورية [٢٧] . ولقد كان لينين واعيا تماما بضرورة التكيف مع فكرة قومية وذلك لتحقيق أهداف سياسية ، ولكن مثل هذا التكيف أدى إلى الاعتراف بأن الوعى القومى يعد بمثابة قوة فعالة لتحقيق الاستقلال الوطنى . وحينما عالج لينين قضية الإمبريالية فإنه لم يفرق بين جذورها القومية من ناحية وأسسها الرأسمالية من ناحية أخرى .

وربما دفعنا ذلك إلى توضيح معالجة لينين لقضية الإمبريالية . لقد كتب لينين كتابه عن « الإمبريالية » [٢٨] فى سنة ١٩١٦ ، أى فى خضم الحرب العالمية الأولى وعشية الثورة الروسية . وفى هذا الكتاب حاول لينين تأكيد نقطة هامة هى ، أن هذه الحرب تتصف بالطابع الإمبريالى وذلك إذا ما أخذنا فى الاعتبار مختلف أطرافها . فهى تسعى إلى الاستيلاء والسيطرة والتخريب ، أى أنها حرب تسعى إلى تقسيم العالم وتوزيع (أو إعادة توزيع) المستعمرات ، فضلا عن التحكم فى مجالات السيطرة كالاستثمار ورأس المال . وبعبارة أخرى فإنها حرب من أجل كسب موافقة أكثر من نصف شعوب الكرة الأرضية على استغلال قواها وأراضيها . وفى ذلك يقول لينين : « نمت الرأسمالية فى ظل نظام عالمى قائم على استغلال القوى الكبرى لشعوب المستعمرات . ومن النتائج المترتبة على ذلك زيادة الأرباح التى تحققها هذه القوى واستنزاف موارد المستعمرات ، ثم إفساد القيادات العمالية أو ما يمكن وصفه بالبرجوازية العمالية » [٢٩] . ويحاول لينين التدليل على ذلك بالاستشهاد بتحليلات هيلفردج وهوبسون ، حيث يذهب إلى أن الأخير (أى هوبسون) قد استطاع فهم ما تجاهله الأول (أى هيلفردج) خاصة فيما يتعلق بالإمبريالية بوصفها ظاهرة طفيلية استغلالية . والملاحظ أن هوبسون – وهو مفكر غير ماركسى – قد أشار إلى أن الكرامة القومية الحقيقية لكثير من المستعمرات قد تعرضت للتشويه والإذلال من جانب أصحاب الاحتكارات الرأسمالية ، إذ أنهم يضطرون دائماً إلى البحث عن أسواق جديدة لتصريف منتجاتهم وتوظيف رؤوس أموالهم . ويوضح هوبسون ذلك قائلاً : « يميل المحتكرون الرأسماليون إلى الاستعانة بحكوماتهم من أجل السيطرة على الدول المتخلفة وذلك بوضعها تحت الحماية أو ضمها . . ويعترف كل رجال الأعمال أن نمو قوى الإنتاج فى بلادهم يفوق نمو الاستهلاك . . وأن مثل هذه

---

(٢٧) Alavi; H; «Imperialism Old and New»; The Socialist Register; 1964; London; Merlin Press; 1964. (3).

(٢٨) Lenin, V; Imperialism: The Highest Stage of Capitalism; Moscow; Progress Publishers; 1966; (2).

(٢٩) Ibid; p. 12.

الظروف تشجع على البحث عن وسائل السيطرة الخارجية[٣٠] .

ومن الواضح أن لينين قد نقل عن هوبسون فكرة نقل رؤوس الأموال من الدول الاستعمارية إلى المستعمرات . فعلى الرغم من أن الحاجة إلى التجارة الخارجية (وعلى الأخص فى مجال السلع) كانت أحد السمات المميزة للمراحل الأولى من الرأسمالية القائمة على المنافسة الحرة ، إلا أن الحاجة إلى تصدير أو نقل رؤوس الأموال يعد أحد الخصائص الهامة التى تميز الرأسمالية الاحتكارية ، وأن ذلك قد تطلب تقسيم أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية بين القوى الكبرى . ويمكننا الاستشهاد على وجهة نظر لينين حول نقل رؤوس الأموال من الدول الاستعمارية إلى المستعمرات بالفقرة التالية . يقول لينين :

« طالما ظلت الرأسمالية محافظة على خصائصها ، فإن الفائض من رؤوس الأموال لن يستخدم من أجل رفع مستوى معيشة الجماهير العريضة ، لأن ذلك يعنى – ببساطة – انخفاض معدلات الأرباح التى يحققها الرأسماليون . وبدلا من ذلك رأى الرأسماليون أن أفضل وسيلة متاحة هى تصدير أو نقل رؤوس الأموال للخارج ، أى للدول المتخلفة . وفى هذه الدول المتخلفة تزداد معدلات الأرباح بسبب ندرة رؤوس الأموال ، كما أن قيمة الأراضى والأجور والمواد الخام تكون منخفضة عنها فى الدول الاستعمارية . أما احتمال نقل رؤوس الأموال فيزداد قوة بدخول الدول المتخلفة فى علاقات مع الرأسمالية العالمية . وقد يكون ذلك دافعاً لأن تقوم الدول الاستعمارية ببعض المشروعات التى تخدم أهدافها داخل الدول المتخلفة كمد السكك الحديدية فضلا عن بعض الخدمات المساعدة[٣١] » .

ويقودنا ذلك إلى مناقشة هذه الأفكار النظرية فى ضوء التطورات الشاملة التى شهدها العالم المعاصر ، خاصة وأن هذه الأفكار تتعلق أساسا بالسيطرة التى حققتها الدول الرأسمالية خلال الحقبة الاستعمارية . ومن أهم القضايا التى يجب ان تثار فى هذا المجال موقف الاتحاد السوفييتى (بعد الثورة) من الإمبريالية وأساليب السيطرة المختلفة التى يمارسها سواء داخل أوربا الشرقية أو دول العالم الثالث . وأول ما يمكن أن يقال فى هذا المجال أن روزا لوكسمبورج Luxemburg كانت من أوائل المفكرين الذين أكدوا القوة الثورية التى تتمتع بها روسيا . كذلك فإن لينين كان قد أبدى رغبة قوية فى تفهم مشكلة القوميات حتى يتمكن من إحراز نصر ثورى فضلا عن الدفاع

---

(٣٠) Hobson; J.A; Imperialism: a Study; Allen & Unwin; 1938; p. 81.

(٣١) Lenin; op. cit; ch. IV.

عن حدود البلاد[٣٢] . أما ستالين Stalin فلقد خطا بأفكار لينين خطوات إلى الأمام واضعا إياها فى إطار نظام سياسى دائم ومستقر . والواقع أن أول ثورة ضد الرأسمالية لم تظهر فى دولة متقدمة صناعيا ذات طبقة عاملة واعية ذاتيا ، وهو ما يناقض ما ذهب إليه ماركس . لقد قامت هذه الثورة فى روسيا التى كانت تشهد نمطا رأسماليا متخلفا كثيرا ما تعرض للهزائم من جانب القوى الكبرى . والملاحظ أن الثورات التى قامت فى شرق أوربا (باستثناء يوغوسلافيا) بعد الحرب العالمية الثانية لم تكن نتيجة لتطورات شيوعية داخلية بقدر ما كانت نتيجة لقوة دبابات الجيش الأحمر السوفييتى . وباستثناء تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية ، فلقد تأسست الأنظمة الشيوعية فى إطار دول ذات ظروف اقتصادية متخلفة . وربما انطبق ذلك – وبدرجة أكبر – على الثورتين الصينية والكوبية . ومن النتائج المترتبة على ذلك أن الاتحاد السوفييتى قد بدأ يعتقد أنه بمثابة الدرع القومى للشعوب التى عانت من الاستعمار طويلا متمثلا ذلك فى تشويه اقتصادياتها وإضعاف بناءاتها الاجتماعية . ويبدو أن الاتحاد السوفييتى يعبر عن ارتباطه بهذه الشعوب بشكل أوضح وأقوى من تعبيره عن تحالفه مع البروليتاريا فى الدول الرأسمالية المتقدمة . ولهذا فإن تأثير الاتحاد السوفييتى يبدو قويا على الدول المجاورة له وتلك التى مرت بخبرات استعمارية .

ولا نستطيع الاعتماد على التفسيرات السابقة لفهم التطورات الحديثة التى مر بها الاتحاد السوفييتى وعلى الأخص فى مجال السياسة الخارجية ، خاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار أزمة الصواريخ فى كوبا ودخول الدبابات الروسية كلا من بودابست وبراغ ، فضلا عن التوتر الدائم على الحدود الروسية – الصينية . ويمكننا الإشارة فى هذا المجال إلى وجهة نظر ايزاك دويتشر Deutcher الذى ذهب إلى أن الروس فى سنة ١٩١٧ كانوا يعيشون فى ظل آخر دولة دخلت المجال الرأسمالى وأول دولة شهدت ثورة عمالية . وحينما جاء ستالين حاول تطوير الزراعة الجماعية من خلال القضاء على النمو الرأسمالى . وقد تم ذلك فى إطار صراع مستمر بين المدينة والريف ، مما اضطره (أى ستالين) إلى الاستعانة بجهاز خاص يستطيع احتواء هذا الصراع والإشراف على السياسة الخارجية أيضا[٣٣] . أما كار Carr فإنه يؤكد ارتباط الثورة الصناعية بقوة البروليتاريا ، بينما يميل إلى التقليل من شأن العلاقة بين الرأسمالية ونمو الطبقة العاملة[٣٤] .

---

(٣٢) Wright; H; M; The New Imperialism : Analysis of Late Nineteenth-Century Expansion; Boston; D.C. Heath; 1961.

(٣٣) Isaac Deutscher; «The Unifinished Revolution»; 1917-67; New Left Review; No. 43 (London; 1967).

(٣٤) Carr; E; H; «Revolution from above»; New Left Review; no. 46, (1968).

واستنادا إلى ذلك نجد كار Carr يعتقد بأن الحزب الشيوعى هو الحامى الحقيقى للبروليتاريا . ومن الواضح أن دويتشر Deutscher وكار Carr يتفقان على نقطة هامة هى ، أن الحكم السوفييتى – على الأقل خلال فترة ستالين – قد شهد توترا بين العمال والفلاحين ، وهو التوتر الذى نجم عن عملية تراكم رؤوس الأموال فى مجال التصنيع ومن خلال استغلال الفلاحين . ولقد نشأ الدور الأساسى للمؤسسة العسكرية السوفيتية مباشرة من خلال الحاجة إلى احتواء هذا التوتر الداخلى فضلا عن الضغوط الخارجية . وبالإضافة إلى ذلك فإن الطابع المركزى الذى اتخذه التخطيط الاقتصادى (بهدف إحداث ثورة صناعية) قد أدى إلى ظهور مؤسسة تكنوقراطية موازية للمؤسسة العسكرية . ولقد تحكم ستالين فى هاتين المؤسستين تحكما شديدا ، لكن الصراع بينهما ما لبث أن احتد مؤخرا ، وإن كانت نتائج هذا الصراع لا تنعكس بوضوح على علاقات الاتحاد السوفييتى بالدول الشيوعية الأخرى .

على أن دويتشر Deutscher وكار Carr لم يوضحا لنا تماما أسباب قلق « التكنوقراطيين » نتيجة لسيطرة « العسكريين » على « النظام الاشتراكى العالمى » . وقد يذهب بعض الماركسيين إلى أن الوحدة الاشتراكية فى ظل قيادة مركزية تعد قضية مصيرية فى ظل ظروف خارجية عدائية . لكن هذه النقطة تكشف عن ضعفها إذا ما أخذنا فى الاعتبار التدخل السوفييتى فى تشيكوسلوفاكيا والقتال على الحدود الروسية – الصينية ، ثم أخيرًا التغلغل الصينى فى فيتنام فى سنة ١٩٧٩ . لذلك فإن الماركسيين قد لا يندهشون حينما يجدون مجتمعا متخلفا تكنولوجيا لا يتبنى الاشتراكية كمذهب فكرى . وتبدو هذه النقطة أكثر وضوحا إذا ما علمنا الأهمية القصوى التى منحها ماركس لقوى وعلاقات الإنتاج وقدرتها على تشكيل كل النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية داخل أى مجتمع .

وتوضح لنا المناقشات السابقة أن المبدأ الأساسى الذى استندت إليه الرأسمالية فى انتشارها وبسط سيطرتها هو مبدأ تراكم رؤوس الأموال . وإذا كان هذا المبدأ يتسق تماما مع تصور ماركس عن الاستقطاب الطبقى ، فإنه قد كشف - مؤخرا – عن قدرته التفسيرية على فهم ديناميات الإمبريالية المعاصرة[٣٥] . ولقد أوضح جونار ميردال Myrdal أن المزايا التى تتيحها المنافسة للدولة الرأسمالية قد تتيح لها الحصول على مزيد من القوة فى مختلف المجالات . وقبل بداية القرن الثامن عشر كان مستوى المعيشة فى الدول المتخلفة الآن أعلى من نظيره فى دول أوربا . ومع

---

(٣٥) Myrdal: G; Economic Theory and Underdeveloped Regions; (London; Duckworth; 1957).

بداية الثورة الصناعية ونمو الرأسمالية نشأت الحاجة للحصول على المواد الخام والأيدى العاملة الرخيصة والأسواق الواسعة ، فكانت السيطرة أولا ثم الاستعمار ثانيا . وبمرور الوقت ظهر نمط من تقسيم العمل الدولى بمقتضاه تخصصت المستعمرات فى إنتاج المواد الأولية ، بينما تولت الدول الاستعمارية تصنيع المنتجات . بعبارة أخرى أصبحت الدول المتخلفة الآن بمثابة « مزرعة عالمية » بينما تحولت الدول المتقدمة لتصبح « مصنعا عالميا » . والمؤكد أن القوى الكبرى قد حرصت لسنوات عديدة على استمرار هذه الأوضاع والمحافظة عليها .

وليس من الصعب علينا اكتشاف مدى اتساق هذه الأفكار مع التحليل الماركسى للعلاقات الاقتصادية الرأسمالية الذى يؤكد أن تراكم رؤوس الأموال فى أحد القطبين يؤدى إلى إفقار القطب الآخر . لكن التحليل الماركسى قد يتعرض للضعف إذا ما أخذنا فى الاعتبار قضية انتقال رؤوس الأموال من الدول الغنية إلى الدول ذات العمالة الرخيصة . إن السبب الذى دفع لينين Lenin إلى تأكيد فكرته عن نقل رؤوس الأموال يتمثل فى تمسكه الشديد بالنموذج الاقتصادى الصارم الذى صاغه ماركس ، والذاهب إلى أن العلاقات الاقتصادية الرأسمالية تتضمن قواعد ذاتية من شأنها دفع المجتمع الرأسمالى إلى الانهيار . والملاحظ أن النظرية الماركسية تستند إلى قضية مؤداها ، أن الإنتاج من أجل الربح يعمل على تراكم رؤوس الأموال بحيث يصعب توظيفها لأنها قد امتصت من عرق الكادحين الذين يشكلون السوق الحقيقى الضرورى لزيادة الإنتاج . وإذا كانت رؤوس أموال الدول المتقدمة قد حققت عائدات ضخمة داخل الدول المتخلفة (وعلى الأخص فى مجالات التعدين والزراعة) ، فإن الفوائد الاقتصادية الجانبية التى حققتها هذه الدول الأخيرة ماتزال محدودة للغاية[٣٦] .

وهناك تساؤلات عديدة تتعلق بقدرة الدول المتخلفة على تحطيم نظام تقسيم العمل الدولى القائم على الاحتكار وما يرتبط بذلك من إمكان نجاح الدول المتقدمة فى فرض المعايير الرأسمالية على نطاق عالمى . إن المشكلة الحقيقية التى تواجهها الدول المتخلفة تتمثل فى نمط التنمية السائد فيها . فهى لا تعانى من تخلف بقدر ما تعانى من تشويه التنمية الممكنة . فاقتصاديات هذه الدول ماتزال تفتقد التوازن الضرورى سواء فيما يتعلق بالاعتماد على منتج واحد من المواد الخام من أجل التصدير أو فيما يتعلق بالبحث عن رؤوس الأموال والمشروعات التنموية خارج حدودها .

---

(٣٦) Magdoff, H; The American Empire and the U.A. Economy, in Rhodes; R; (ed.) Imperialism and Underdevelopment; New York; Monthly Review press; 1970; pp. 18-44.

ومن الطبيعى أن ينعكس ذلك كله على طابع البناء الاجتماعى فى الدول المتخلفة ، بحيث أصبحنا نجد القطاعات التجارية الأجنبية تحتكر رؤوس الأموال ، بينما تظل التنمية الصناعية القومية فى موقف ضعيف للغاية بسبب المنافسة الخارجية . ولقد أفاض بول باران Baran فى توضيح ما أطلق عليه « بناء التخلف » ، مشيرا إلى أبعاده الاجتماعية والسياسية والاقتصادية[٣٧] . وبعد أن يوضح باران كيفية امتصاص الدول المتقدمة لرؤوس الأموال التى تتكون داخل الدول المتخلفة ، نجده يذهب إلى أن باستطاعة البرجوازية الوطنية بالتحالف مع البروليتاريا قيادة « الحركة التاريخية » من أجل تنمية الدول المتخلفة[٣٨] . ويحق لنا أن نتساءل عن مدى صدق وجهة نظر باران . فباستثناء اليابان والصين ماتزال التنمية الاقتصادية مقصورة على الدول الغربية والاشتراكية . ولما كانت الموارد الطبيعية ماتزال دون الندرة الشديدة ، فإن تفسير ظاهرة التخلف يجب أن يتم فى ضوء الظروف التاريخية – البنائية التى مرت بها الدول المتخلفة .

والواقع أن العلماء الاجتماعيين مايزالون بحاجة إلى تفسير أكثر شمولا لأسباب تعثر التنمية الاقتصادية فى كثير من الدول المتخلفة . فخلال السنوات الأخيرة بدأت بعض هذه الدول تفرض ضرائب عالية على السلع الأجنبية بهدف حماية صناعاتها الوليدة . بيد أن الشىء الذى قد يدعو للسخرية هو أن صناعات ترفية قد بدأت تتكون داخل الدول المتخلفة وتحقق نموا ملحوظا بفضل اعتمادها على مستهلكى الطبقتين الوسطى والعليا . والملاحظ أن المصانع التى تنتج سلعا كمالية تخضع عموما لسيطرة أجنبية وتشكل قطاعا حديثا مستقلا يستطيع حماية نفسه من الحواجز الجمركية . وحينما تستشعر الشركات العالمية العملاقة ظهور سوق جديد فى إحدى الدول المتخلفة تبادر لولوجه والسيطرة عليه بمنتجاتها[٣٩] . ويمكننا أن نستشهد على ذلك بمصانع تجميع السيارات فى كل من الأرجنتين والبرازيل وفنزويلا . ولنا بعد ذلك أن نطرح بدائل عديدة منها : إمكانية ظهور طبقة رأسمالية وطنية داخل الدول المتخلفة تستطيع تطوير صناعاتها الأساسية والحد من تدفق رؤوس الأموال الأجنبيةعليها ، أو قدرة البروليتاريا الصناعية (برغم ضآلة حجمها) على القيام بدور سياسى مؤثر يستطيع التأثير على نمط التنمية الاقتصادية السائد فى الدول المتخلفة ، أو تمكن الفلاحين من القيام بمثل هذا الدور كما حدث فى الصين عشية ثورتها . والمؤكد أن التنمية

---

(٣٧) Baran, P: The Political Economy of Growth; op. cit; pp. 163 ff.

(٣٨) Ibid: p. 140.

(٣٩) O' Connor, B: The Meaning of Economic Imperialism, in Rhodes: R; (ed.) Imperialism and Underdevelopment; op. cit pp. 101-123.

الاقتصادية – الاجتماعية تعد أحد الأهداف الأساسية لكل الثورات والانقلابات التى شهدتها دول العالم الثالث خلال العقود الثلاث الماضية . ولقد حاولت الدول الصناعية المتقدمة استخدام الأساليب العسكرية لقمع هذه الثورات خاصة إذا ما وجدت فيها تهديدا واضحا لمصالحها . وغالبا ما يصف الدارسون المحدثون مثل هذا التدخل العسكرى بأنه مثال واضح على الإمبريالية الحديثة . والنقطة التى ماتزال بحاجة إلى مزيد من الحسم تتعلق بما إذا كانت مصالح الدول الصناعية المتقدمة ذات طابع اقتصادى خالص أم أنها امتداد لطبيعة النظام الرأسمالى ذاته والرغبة فى الدفاع عنه . ومع ذلك فيبدو أن هناك اتفاقا ملحوظا على أن مثل هذا التدخل العسكرى يكون عادة لصالح كل الدول الصناعية المتقدمة بما فى ذلك شركاتها الدولية العملاقة خاصة إذا ما كانت أسواق الدول المتخلفة تشكل مجالا خصبا للتوسع الاقتصادى .

ثانيا : نظريات غير أوربية فى الامبريالية – نماذج من العالم الثالث

ظلت مناقشاتنا السابقة مقصورة على نظريات الإمبريالية التى ظهرت وتطورت فى الدول الغربية بصفة عامة ، فهى أولا نظريات قدمها مفكرون أوربيون ، وهى ثانيا نظريات تركز بصفة أساسية على النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة فى الدول الأوربية . لذلك نجد من الضرورى مناقشة النظريات غير الأوربية التى تناولت قضية الامبرالية ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أن كثيرا من الأفكار والتصورات التى تضمنتها هذه النظريات ليست بعيدة تماما عن الفكر الماركسى – اللينين ، إلا أنها تختلف عنه فى عدد من النقاط . اذ أن هذه النظريات تميل عموما الى تأكيد قضية النسبية الثقافية ، أى استحالة وضع كل المجتمعات الانسانية على مقياس واحد . كذلك فان هذه النظريات تهتم اهتماما كبيرا بإبراز حقيقة التقسيم والتفرقة الواضحة بين الأوربيين وغير الأوربيين ، أو بعبارة أخرى بين المستعمرين بكسر الميم والمستعمرين بفتح الميم . وفضلا عن ذلك فان أصحاب هذه النظريات يؤكدون أن أية نظرية اجتماعية يجب أن تفسح مجالا كبيرا لتأثير الامبريالية على الدول المتخلفة . ذلك أن العلاقة بين المستعمر والمستعمر – فى نظرهم – ليست علاقة اقتصادية فقط ، وانما تتعدى ذلك إلى مجالات الاتجاهات والمعتقدات والمثل والقيم[٤٠] . ونحن لا نطمح فى هذه الدراسة القصيرة تقديم

(٤٠) Spiegler, J. S: Aspects of Nationalist Thought Among French-Speaking West Africans: 1921-1939; Oxford University Press; 1970.

استعراض شامل لكل الكتابات غير الأوربية حول الامبريالية ، ولكننا نطمع فى مناقشة مجموعة مختارة منها مع إشارة خاصة لبعض النظريات الافريقية . ومن الأهداف التى نسعى إليها هنا التعرف على مدى الاستمرار الفكرى بين النظريات التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وتلك التى ظهرت خلال القرن العشرين . كذلك فاننا نهدف إلى اكتشاف الدور الذى يمكن أن تلعبه هذه النظريات المتنوعة فى إقامة نظريات عامة تفسر الامبريالية من حيث نشأتها التاريخية وظروفها الحالية وتطوراتها المقبلة .

وفى بداية معالجتنا يمكننا إثارة عدد من التساؤلات تتعلق بجهود المفكرين غير الأوربيين من أجل اقامة نظرية عامة فى الامبريالية . ومن الممكن مواجهة هذه التساؤلات بتحليل الاجابات التى قدموها للتساؤلات التى طرحوها . ومن بين هذه التساؤلات – وربما أكثرها أهمية – ما المقصود بنظرية الامبريالية وما هى المشكلات والقضايا التى يتعين عليها تفسيرها ؟ هنا نجد اتفاقا ملحوظا بين هؤلاء المفكرين . فهم يعتقدون ان نظرية الامبريالية يجب أن تفسر كيفية ظهور السيطرة التى تمارسها الدول الصناعية المتقدمة تكنولوجيا على الدول الزراعية المتخلفة تكنولوجيا ، ومدى اختلاف الامبريالية الغربية الحديثة عن مختلف أشكال الامبراطوريات القديمة التى حققت سيطرة كبيرة على الشعوب الأخرى . كذلك فإن نظرية الامبريالية تحاول تفسير آثار الامبريالية الغربية على الدول المتخلفة وعلى الظروف العالمية بأسرها . ويرتبط ذلك بدراسة كيفية مواجهة علاقات السيطرة على الدول المتخلفة والمشكلات المتعلقة بالتحرر وتصفية الامبريالية بأشكالها المختلفة[٤١] . والملاحظ أن كتابات المفكرين غير الأوربيين حول الامبريالية تميل إلى تأكيد العلاقة العضوية الوثيقة بين النظرية من ناحية والممارسة والتطبيق من ناحية أخرى . ويبدو ذلك واضحا فى كتابات جمال الدين الأفغانى فى أواخر القرن التاسع عشر حين لخص موقفه ببساطة شديدة بقوله : « هل نستطيع تحديد أسباب ما يعانيه المسلمون من فقر واهانة وعجز ؟ وهل هناك علاج أو دواء للقضاء على هذه المشكلات[٤٢] ؟ ».ومن الطبيعى أن يختلف موقف الأفغانى عن موقف كوامى نيكروما Nkrumah الذى نظر الى الامبريالية من منظور لينينى ، كما يختلف موقف الاثنان عن موقف عبد اللاى لى Abdoulaye Le[٤٣] الذى قدم تحليلا جذابا للجذور التاريخية للامبريالية فى ضوء أفكار وتصورات روزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg . وبرغم

(٤١) Hancock; Wealth of Colonies; Cambridge; Cambridge University Press; 1950.

(٤٢) Jamal al-din al-Afghani; «The benefits of Philosophy»; in Berkeley and Los Angeles Univ. of California Press; 1968; p. 120.

(٤٣) Abdoulaye Le; Les Masses Africaines et l'actuelle Condition humaine (paris; 1956).

الاختلافات الواضحة بين هؤلاء المفكرين ، إلا أنهم يتفقون على الاهتمام بتحليل الإمبريالية الغربية كظاهرة تمارس تأثيرها فى أفريقيا أو الدول الإسلامية أو العالم الثالث بصفة عامة . والمؤكد أن الأفغانى كان واعيا تماما بأبعاد التقدم التكنولوجى الذى من خلاله استطاعت الامبريالية فرض سيطرتها على الشعوب المتخلفة ، حيث يقول فى هذا المجال : « وضع الأوربيون الآن (١٨٨٢) أيديهم على جزء من العالم . فلقد وصل الإنجليز إلى أفغانستان ، واستولى الفرنسيون على تونس . ولم يحدث ذلك نتيجة لطبيعة عدوانية كامنة فى الفرنسيين والإنجليز ، وإنما بسبب ما يمتلكونه من علم يجسد عظمتهم وقوتهم[٤٤] » . والواقع أن التفسير السابق الذى قدمه الأفغانى للإمبريالية يمثل خطوة إلى الوراء . إذ كيف نستطيع اختزال قضية الإمبريالية لتصبح مجرد علامة على تخلف العالم غير الغربى فى مجالى العلم والتكنولوجيا . لذلك نجد الأفغانى يضيف إلى ذلك عدم كفاءة المثقفين (أى علماء الدين) فى المجتمعات الإسلامية ، فضلا عن سيطرة النظام التعليمى التقليدى ، لكننا نجد مفكرين آخرين يقدمون وجهات نظر مختلفة . فعلى سبيل المثال نجد كوياتية Kouyate (وهو مفكر أفريقى) يركز على طبيعة التناقضات الداخلية التى شهدتها الدول الأفريقية (وكذلك بقية دول العالم الثالث) خلال فترة المد الاستعمارى ، وكيف أن هذه التناقضات قد ساعدت على انتشار التغلغل الأجنبى داخل أفريقيا .

وفى بداية الفترة الاستعمارية سجل مفكرو العالم الثالث كثيرا من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التى طرأت على بلدانهم . من ذلك افتقاد هذه البلدان للسيادة الوطنية ، والهزيمة التدريجية للمقاومة الوطنية العسكرية والسياسية سواء بالأبعاد أو النفى أو السجن أو الإعدام ، والقضاء على القادة والزعماء غير المتعاونين مع الإدارات الاستعمارية ، وفرض شبكات إدارية استعمارية قادرة على التحكم فى موارد السكان الوطنيين ، وتجنيد طاقم من الموظفين الأجانب الذين ينتمون إلى البرجوازيات الحضرية . يضاف إلى ذلك كله تغلغل الشركات والمؤسسات الاستعمارية فى كل القطاعات الوطنية التى يمكن أن تحقق فائضا اقتصاديا ، مما تطلب إيجاد شبكة من المواصلات والطرق والموانى التى تخضع خضوعا كاملا للسيطرة الأجنبية . ولم يكن ذلك كله ليتم دون خلق أيديولوجية امبريالية تحاول تفسير أبعاد العلاقات الاجتماعية والسياسية الجديدة وتبرر هذه السيطرة الأوربية الجديدة[٤٥] . والملاحظ أن مفكرى العالم الثالث

---

(٤٤) Al Afghani; «Lecture on Teaching and Learning», in Keddie op. cit; p. 102.

(٤٥) Gann; L;H; and Duignan; P. Colonialism in Africa ; 1870-1960. vol. 1; The History and Politics of Colonism; 1870-1914. (Cambridge; Cambridge Univ. Press; 1969); p. 507; n.1.

المعاصرين يحاولون إعادة تأليف هذه العناصر للتوصل إلى إطار فكرى يمكنهم من فهم ديناميات الامبريالية ، وتحديد العلاقات التاريخية التى كانت تربط بين البناءات الاجتماعية القديمة فى المستعمرات وتلك التى أوجدها وشكلها الاستعمار . وعلى الرغم من أن مفكرى العالم الثالث قد حاولوا تحديد خصائص الإمبريالية والظروف التى تشكل « الموقف الاستعمارى » أو « العلاقة الاستعمارية » ، إلا أننا نلمس فروقا بينهم فى هذا المجال . فعلى سبيل المثال نجد فرانتز فانون Fanon يتخذ موقفا متميزا بسبب تأثره الشديد بالجيل الأول من الراديكاليين الذين ينتمون إلى دول أفريقية ناطقة بالفرنسية . ويحاول فانون تحديد « الموقف الاستعمارى » فى ضوء مفاهيم كالعنف ، أى عنف المستعمرين إزاء السكان الوطنيين . ويرتبط ذلك بفكرة الاستقطاب التى تعبر عن وجود طرفين متصارعين ، مما أدى إلى ظهور مدن غنية يسكنها البيض المستعمرون وقرى ومحلات فقيرة يقطنها السود الخاضعون[٤٦] . وتعود فكرة الإذلال الاستعمارى بالطريقة التى عبر بها فانون عنها إلى بداية العشرينيات حينما أوضح هوشى منه Ho chi Minh كيف أن معاملة المستعمر الفرنسى للسكان الوطنيين قد وصلت إلى مستوى معاملة الحيوانات[٤٧] . ويحاول فانون بعد ذلك توضيح دور البرجوازيات الوطنية فى تعميق عملية الاستقطاب ، ذاهبا إلى أنها قد اتخذت على الدوام مواقف مؤيدة للقوى الاستعمارية على حساب الوطنيين . وعلى أية حال فلقد كان تصور فانون للموقف الاستعمارى مقصورا على البناء الفوقى ، أى أنه كان يركز بصفة أساسية على العلاقات الاجتماعية – السياسية والاتجاهات والمعتقدات التى أرساها الاستعمار داخل المستعمرات بهدف الحفاظ على مصالحه وأهدافه .

ولنا أن نتساءل بعد ذلك عن معايير النقد التى تبناها مفكرو العالم الثالث عند مناقشة أصحاب النظريات الاستعمارية من الغربيين . الواقع أن مفكرى العالم الثالث قد حاولوا تفنيد النظريات الاستعمارية بإبراز جوانبها العكسية . فحينما ناقشوا الفكرة الاستعمارية التقليدية التى تؤكد أن الإمبريالية تسعى إلى إحلال حكم متحضر محل حكم قبلى بربرى ، نجد مفكرى العالم الثالث يؤكدون أن الهدف الأساسى للإمبريالية هو تحطيم الحضارات الأفريقية الأصيلة (أو غير الغربية عموما) واستبدالها بأخرى بربرية غربية على نحو ما أشار تالفوا هوينو Houenou[٤٨] . والواقع

---

(٤٦) Fanon; F; The Wretched of the Earth (Harmondsworth; Penguin; 1967) pp. 29-33.

(٤٧) Spiegler; J;S; op. cit

(٤٨) Ayandele; E; The Missionary Impact of Modern Nigeria 1842-1914 (London; Longmans; 1966).

أن مثل هذا النوع من الدفاع المضاد يوحى لنا ببعض الملاحظات الأولية . فهو يؤكد حقيقة طالما أنكرها مؤرخو الاستعمار وهى أن عملية التغلغل الأوربى كانت فى حد ذاتها عملية بربرية . أما الرد الذى يقدمه المدافعون المعاصرون عن الاستعمار فيدور حول مبررات دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية حتمت على بعض الأوربيين الاتصال بالشعوب الأفريقية التى كانت تعيش فى ظل نظم مختلفه تمامًا[٤٩] . ويمكننا أن نجد صدى قويا لهذه الأفكار فى كتابات رينيه ماران Maran (وهو أحد مفكرى جزر الهند الغربية البارزين) ، كما نجد تعبيرا أكثر دقة عنها فى كتابات سلطان جاليف Galiyev الذى كتب يقول : « لم يكن من الضرورى أن تسفك دماء ملايين الهنود الحمر أو الزنوج الأمريكيين لكى تباد حضارة الانكاس Incas وتنمو أمريكا الحديثة بما ترفعه من « شعارات السلام » ، وما تمثله من ثقافة « عالمية » و « تقدم تكنولوجى » . لقد بنيت ناطحات السحاب الضخمة فى شيكاغو ونيويورك وغيرها من المدن الأمريكية ذات الطابع الأوربى على عظام « الجلد الأحمر » و « البشرة السوداء » . وأحد نتائج ذلك كله تدمير حضارات كانت تحقق الشعور بالانتماء الحقيقى لدى السكان الأصليين[٥٠] .

ولم يكتف مفكرو العالم الثالث بوصف الغزو الأوربى للمستعمرات بالبربرية ، ولكنهم أطلقوا هذه الصفة أيضًا على كل النظم الاقتصادية والإدارية والثقافية التى يمثلها الاستعمار والتى من شأنها إذلال السكان الوطنيين . ولقد ساعدت الظروف التى صاحبت الحرب العالمية الأولى بعض هؤلاء المفكرين على إيجاد مبررات لوصفها بأنها « حرب بربرية » شنتها البرجوازية الأوربية من أجل تقسيم العالم بما فى ذلك المستعمرات . والواقع أن هذه الحرب قد أثارت جدلا سياسيا حادا داخل المستعمرات ذاتها من حيث أهدافها ونتائجها المحتملة[٥١] . ويحاول بعض المفكرين تطوير هذه القضية فيذهبون إلى أنه ليس ثمة علاقة ضرورية بين مستوى التطور التكنولوجى لشعب من الشعوب ونوعية الحضارة التى تميزه . ويحاول بلايدن Blyden توضيح هذه القضية بتأكيد فكرة « النسبية الثقافية » التى تعنى أن التفاوت فى مستوى التطور التكنولوجى لا يعنى – بالضرورة – تفاوتا فى مستوى الحضارات . ومعنى ذلك – كما يقول بلايدن – أنه لا توجد محكات موضوعية على أساسها يمكن القول بأن حضارة البرجوازية الفرنسية خلال الجمهورية الثالثة تعد أرقى من

---

(٤٩) Ward; W;E; «Colonial Rule in West Africa», in Joseph C. Anne and Godfrey N. Brown; Africa in the Nineteenth and Twentieth Centuries (Ibadan; 1966); p. 308.

(٥٠) In Spieglor; J;S; op.

(٥١) Stepperson and Prire; Independent Africa; London; 1962 p. 234.

حضارة امبراطورية السيجو Segu التى حكمها أحمدو شيهو Shehu . ويحاول اميل فور Faure مناقشة هذه القضية رافضا فكرة التفرقة بين الحضارات العليا والحضارات الدنيا . إن القول بأن التطور التكنولوجى أمر يجب أن يحققه الأفريقيون لا يعنى بالضرورة أن يفرض الأوربيون ثقافتهم على أفريقيا(٥٢) .

ويثير مفكرو العالم الثالث بعد ذلك نقطة أخرى هى أن ما يطلق عليه التقدم التكنولوجى والتغير الاجتماعى فى ظل توجيه مركزى حديث قد تم بالفعل فى عدد من المجتمعات الأفريقية فى أواخر القرن الثامن عشر كنتيجة لكل من القوى الداخلية والمثيرات الخارجية . ومعنى ذلك أن أفريقيا كانت تملك منذ البداية بذور تقدمها وتحديثها ، وأن التأثير الذى مارسته الإدارات الاستعمارية يتمثل فى تعويق عملية التغير الاجتماعى والتكنولوجى . وعلى الرغم من أن هذه الفكرة تلقى رواجا بين المؤرخين الأفريقيين المعاصرين ، إلا أن إثارة كوياتية Kouyate لها فى سنة ١٩٣٠ كانت تعد وقتئذ عملا شجاعا ، لأنه قد فند – استنادا إلى فهم تاريخى عميق الأسطورة الإمبريالية الذاهبة إلى أن الاستعمار قد لعب الدور الأكبر فى ربط أفريقيا بالعالم الحديث(٥٣) . ويحاول بعض المفكرين الآخرين كشف زيف بعض الدعاوى التى بررت دخول الاستعمار إلى أفريقيا فى ضوء الظروف التاريخية التى صاحبته . ومن بين هذه الدعاوى تفكك النظم السياسية فى المجتمعات الأفريقية نتيجة للخلافات البشرية وحاجتها إلى قوى خارجية تستطيع الحسم أو البت فيها . ولقد عبر الأفغانى عن هذا الموقف بطريقة ساخرة فى كتابه « العروة الوثقى » حين قال : « دخل الإنجليز الهند ولعبوا برؤوس أمرائها وملوكها بحيث لم يجد أى إنسان ذكى سوى الضحك والبكاء على هذا الموقف . لقد تغلغل الإنجليز فى داخل أراضى الهند واستولوا عليها قطعة بعد قطعة ، وحينما أصبحوا سادة الأرض استولوا معها على حريات السكان وأبدوا احتقارهم لجيرتهم ، قائلين (أى الإنجليز) إن الهدف الأساسى من وجودهم فى الهند هو هدف اقتصادى بحت . وواقع الأمر أن الهنود لم يكونوا يشاركون فى أى نمط من الإدارة السياسية . وإزاء الاستغلال الذى خضع له الهنود كان المالكون الزراعيون منهم يفضلون عدم العمل والتعرض لظروف الفقر والإهانة والمعاناة . ويبرر الإنجليز موقفهم بالقول بأنه سوف يأتى اليوم الذى تستقر فيه الظروف العالمية ويتركون فيه الهند . ولن يأتى هذا اليوم – فى نظرى – إلا بقيام

---

(٥٢) Faure; H; «To be or not to be»; Cited in Spiegler; p. 230.

(٥٣) Crowder; M; West Africa Under Colonial Rule (London; Hutchinson; 1968; pp. 7-10

القيامة . وها نحن الآن نجد الإنجليز يرددون نفس الأحاديث فى مصر[٥٤] » . والواقع أن عبارات الأفغانى تكشف بوضوح عن أن الاعتذارات التى كان الاستعمار يقدمها لشعوب المستعمرات ما هى إلا أساليب ووسائل للسيطرة والتحكم ، وأنها (أى الاعتذارات) لم تكن تعبر عن وجود موقف متردد من الاستعمار بقدر ماكانت تشير إلى تصميم أكيد على الاستغلال[٥٥] .

ويحق لنا بعد ذلك مناقشة العلاقة بين وجهات نظر مفكرى العالم الثالث من ناحية والنظرية الماركسية من ناحية أخرى . إن من المهم التعرف على جوانب الاتفاق والاختلاف بينهما حتى نتمكن من التوصل إلى تقويم أفضل لما قدمه مفكرو العالم الثالث من فهم وتحليل لظاهرة الامبريالية . ومن الواضح أن تحقيق ذلك ليس بالأمر اليسير ، لذلك سنقصر معالجتنا على بعض الكتابات الأفريقية التى ظهرت بعد الثورة البولشفية فى روسيا ونهاية الحرب العالمية الأولى ، وهى كتابات تعكس تأثرا واضحاً بالأفكار الماركسية – اللينينية من ناحية ونظريات القومية الأفريقية من ناحية أخرى ، بل إننا نلمسها على مستوى المفكر الواحد خلال مراحل مختلفة من عمره .

ولنناقش أولا ما يبدو لنا نقاط الاتفاق بين كتابات المفكرين الأفريقيين من ناحية ، والنظرية الماركسية من ناحية أخرى . من الواضح أن هؤلاء المفكرين يتفقون مع الماركسيين عموما حول المقصود بنظرية الإمبريالية وعلى الأخص فيما يتعلق بالعلاقة العضوية الوثيقة بين النظرية والممارسة . أى أن الهدف الأساسى من محاولة فهم الإمبريالية هو القضاء عليها . كذلك فإن هناك اتفاقا بين الطرفين على أن هناك نوعا من الارتباط الضرورى بين تقدم المجتمعات الرأسمالية والسياسات الإمبريالية التى تتبناها الطبقات الحاكمة فى هذه المجتمعات ، وهما فى ذلك يجمعان على أن الإمبريالية قد أحدثت تشويها وتخريبا لثقافات ونظم واقتصاديات الدول المتخلفة ، وإن ذلك قد دفع القوى الاستعمارية إلى تكوين قيادات وطنية لا ترتبط بالأهداف الوطنية بقدر ما ترتبط بالأهداف الإمبريالية . وفضلا عما سبق فإن الطرفين يتفقان على أن الاستعمار قد ساعد على تدعيم القوة السياسية لأكثر القطاعات الوطنية رجعية ومحافظة ، وأنه بذلك قد أسهم فى نشر وترويج أيديولوجيات عنصرية وبث روح الشوفينية والانتهازية داخل الحركات العمالية . وفيما

---

(٥٤) Al-Afghani; «The Materialists in India»; al-Urwa-al-Wuthqa (28 Aug. 1884); cit ed in Keddie; An Islamic Response to Imperialism; p. 175

(٥٥) Oliver; R. and Fage; J; A Short History of Africa (Harmonsworth; Penguin; 1962); p. 203.

يتعلق بالمنافسة بين القوى الإمبريالية نجد الطرفين يبديان قدرا كبيرا من الالتقاء فيما عدا ذلك . إذ أن أحد الأسباب القوية الدافعة للحروب العالمية ، تلك المنافسة الضارية بين الدول الاستعمارية. لذلك فإنهما يعتقدان أن القضاء على الإمبريالية يتطلب منذ البداية تنظيم عدد كبير من حركات التحرير الوطنى داخل المستعمرات بحيث تضم كل القطاعات المقهورة من السكان كالفلاحين والبدو والعمال الصناعيين والعناصر الوطنية من البرجوازية . ويجب أن تخضع حركات التحرير لقيادة وطنية مدربة منظمة مخلصة .

وإذا ما انتقلنا إلى وجوه الاختلاف بين وجهات نظر المفكرين الأفريقيين والنظرية الماركسية ، وجدنا تفسيرات متباينة لمواقف واحدة . وأول نقاط الاختلاف التى ينبغى الإشارة إليها تتعلق بما أطلق عليه المفكرون الأفريقيون « النسبية الثقافية » ، وتأكيدهم لوجود قيم تعاونية ديموقراطية أخوية سادت المجتمعات الأفريقية قبل أن تأتى القوى الاستعمارية لتذيبها وتحطمها . ومعنى ذلك أن هؤلاء المفكرين يرفضون فكرة التقدم الواحدى الخط من التنظيم الاجتماعى « الأدنى » إلى التنظيم الاجتماعى « الأعلى » ، وبالتالى فهم ينكرون صدق التفسيرات الماركسية الفجة التى تؤكد مثل هذه الأفكار . أما نقطة الخلاف الثانية فتتعلق بفكرة الآثار غير الإنسانية للإمبريالية على الدول المستعمرة وتصدير الأفكار والاتجاهات والنظم والفنون التى تستخدمها برجوازيات الدول الاستعمارية بهدف السيطرة والتحكم فى الدول المتخلفة . ومن المعروف أن هذه القضية قد ترددت كثيرًا فى كتابات ماركس وأتباعه وعلى الأخص لينين بما فى ذلك بعض النقاد الليبراليين للإمبريالية أمثال هوبسون (٥٦) Hobson . أما بالنسبة لمفكرى العالم الثالث أمثال سيزار Césaire وفرانتز فانون Fanon فإن قضية آثار الإمبريالية تتخذ أهمية جديدة . فالفاشية والنازية – من وجهة نظرهما – هما شكلان للامبريالية على المستويين الداخلى والخارجى . وهناك نقطة أخرى يبدو حولها خلاف ملحوظ بين الطرفين تتعلق بالتعارض الشديد والمستمر بين مصالح المجتمعات المتقدمة الغربية « البيضاء » من ناحية والمجتمعات المتخلفة غير البيضاء من ناحية أخرى . وهذا يعنى منح التناقض بين الدول الإمبريالية والشعوب المتخلفة الأولوية على أية تناقضات أخرى قد تنشأ داخل كل من المعسكرين على حدة . ولقد قال سلطان جاليف Galiyev فى هذا المجال : « إذا كانت كل الطبقات داخل الدول الإسلامية قد خضعت لقهر وسيطرة الاستعماريين ، استحقت وصف

---

(٥٦) See D'Encausse; Schram; S; Marxism and Asia; London; Allen Lane; 1969; pp. 140-142; and Hobson; J; Imperialism; op. cit. ch. 1. «The Political Significance of Imperialism».

الطبقات البروليتارية . . إن الشعوب الإسلامية هى – أولا وأخيرًا – شعوب بروليتارية »[٥٧] . ومن الواضح أن التناقض الأساسى الذى يؤكده مفكرو العالم الثالث ليس مجرد تناقض الأهداف والمصالح الاقتصادية بين المسيطرين والخاضعين ، بين المستغلين والمستغلين ، بين المتقدمين والمتخلفين ، بين برجوازيات الدول المتقدمة وعمال الدول المتخلفة ؛ إنه أيضًا تناقض ناجم عن الاختلافات العميقة بين تاريخ وثقافة كل من العالمين المتقدم والمتخلف ، بما فى ذلك الاختلافات الناجمة عن الخبرة الاستعمارية ذاتها ، أى خبرة المستعمرين فى مقابل خبرة ضحاياهم . ويعتقد جاليف أن من المستحيل إزالة هذا التناقض فى إطار العلاقات الاقتصادية القائمة أو من خلال الثورات الاجتماعية التى قد تنشأ داخل الدول المتقدمة بما فى ذلك حلول نظم سياسية عمالية محل نظم سياسية برجوازية .

وترتبط بالقضية السابقة قضية خلافية أخرى تتصل بتصور لينين حول مصالح الطبقة العاملة فى الدول الصناعية المتقدمة واستغلالها للجماهير فى الدول المتخلفة ، وهى المصالح التى يجب أن يحل محلها تحالف قوى بين الأحزاب البروليتارية الثورية فى الدول الأولى (الصناعية) وحركات التحرر الوطنى تحت قيادة ثورية فى الدول الثانية (المتخلفة)[٥٨] . وحول هذه القضية نجد مفكرى العالم الثالث يتخذون موقفا مترددا منها أو يميلون إلى قبولها مع بعض التحفظات . وأعتقد أن هناك اعتبارات عملية ونظرية تبرر اتخاذ مثل هذا الموقف المتردد . فما يزال الجدل محتدم حتى الآن حول الإمكانيات الثورية التى تمثلها البروليتاريا فى الدول المتقدمة ، كما أن هناك مخاوف حقيقية من أن تخضع حركات التحرر الوطنى فى الدول المتخلفة لمصالح الطبقة العاملة الصناعية فى العالم المتقدم فى ظل مفاهيم « الأخوة » و « السلام » و « الديموقراطية » السائدة فيه . ويرتبط بذلك التردد العام ضد الصلف الفكرى الغربى (الذى قد يمثله بعض الماركسيين ومعظم الليبراليين والمدافعين عن الإمبريالية) والذى يطالب الشعوب المستعمرة الآن أو التى حققت استقلالها مؤخرا باتخاذ مبادرات تاريخية من شأنها إحداث تغييرات جذرية فى بناءاتها . إذ إن مثل هذه المبادرات يجب أن تنبع من داخل دول العالم الثالث ذاتها . ومعنى ذلك إعفاء القطاعات الراديكالية أو الثورية فى الدول المتقدمة من أية مسئولية إزاء الشعوب الفقيرة فى الدول المتقدمة من أية

---

(٥٧) In Bennigsen and Quelquejay; Islam and the Soviet Union (London; Pall Mall Press; 1967); ch xv.

(٥٨) Carr; E;H; A History of Soviet Russia; The Bolshevik Revolution; 1917-1923; III p. 256.

مسئولية إزاء الشعوب الفقيرة فى الدول المتخلفة . وإزاء هذه الصلف الفكرى نجد مفكرين من أمثال سلطان جاليف يطالبون بإيجاد تحالف واسع النطاق بين شعوب العالم الثالث ، لأن ذلك هو الضمان الوحيد لمواجهة الإمبريالية والقضاء عليها .

ثالثا : الإمبريالية والتنمية – حالة التصنيع

فى ضوء التصورات النظرية السابقة يمكننا مناقشة العلاقة بين الإمبريالية والتنمية مستخدمين حالة التصنيع التى تعبر بوضوح عن جانب هام من جوانب التنمية الاقتصادية . ويشير التصنيع – فى أبسط معانيه – إلى النمو الكمى فى الإنتاج الصناعى فضلا عن التغير الكيفى الذى يطرأ على البناء الاجتماعى سواء تعلق ذلك بالتركيب الطبقى أو أساليب العمل والحياة . ويتعين علينا منذ البداية التمييز بين التصنيع المستقل والتصنيع التابع . ففى الحالة الأولى تتوافر كل مقومات النمو الصناعى الضرورية لتحقيق النمو الصناعى المتميز ، وفى الحالة الثانية يظل التصنيع خاضعا لعوامل خارجية تفقده القدرة على الانطلاق واكتساب طابعه الخاص[٥٩] . وعلى الرغم من أن اتساع نطاق الأسواق يعد أحد مقومات التصنيع المستقل كما هو الحال فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، إلا أن هناك مقومات أخرى لا تقل عن ذلك أهمية وخطورة . من ذلك بناء الإنتاج الصناعى . فالدول لا تستطيع تحقيق التصنيع المستقل إلا إذا تمكنت من إقامة عدد كبير ومتنوع من الصناعات الأساسية الاستراتيجية.كذلك فإن مصدر تمويل هذه الصناعات يؤثر– بالتالى – على مدى استقلالية التصنيع . فرؤوس الأموال الأجنبية قد تحول دون الاستقلال الصناعى . وفى بعض الحالات الفردية كالولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر لم تشكل رؤوس الأموال الأجنبية تهديدا خطيرًا للنمو الصناعى . غير أن تجارب الدول النامية خلال القرن العشرين تختلف عن تجربة الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر[٦٠] . ففى الدول النامية الآن لا نجد انفصالا واضحاً بين المستثمر والمقرض ، مما قد يؤثر على استقلال التصنيع ويوجهه لخدمة المصالح الأجنبية . وربما كانت التكنولوجيا هى أهم العوامل المؤثرة على مدى الاستقلال الصناعى . وعلى الرغم من أن مفهوم التكنولوجيا يتصف بالتجريد الشديد بحيث يصعب تحديد

---

(٥٩) Gerschenkron; A; Continuity in History and Other Essays Cambridge; Mass; Harvard Univ. Perss; 1968

(٦٠) Mandel; E; Marxist Economic Theory; London, Merlin Press; 2 1968; p. 476-479

ما نعنيه بالتقدم التكنولوجى ، إلا أن القضية الأساسية التى تعنينا هنا هى أننا لا نكاد نجد دولة معاصرة تعيش فى عزلة تكنولوجية ، وأن التكنولوجيا قد أصبحت تشكل الدعامة الأساسية للتصنيع الناجح منذ حدوث الثورة الصناعية . ونتيجة لذلك بدأت معظم دول العالم الساعية إلى التصنيع فى نقل تكنولوجيا الدول المتقدمة ومحاولة تطويرها أو تعديلها بما يتلاءم مع الظروف القومية الخاصة . ومع ذلك فإن التكنولوجيا المتقدمة وحدها لا تستطيع ضمان التقدم الصناعى . إذ لا يستطيع القطاع الصناعى أن يزود السوق المحلية بما يحتاجه من منتجات ما لم تحدث بعض التعديلات على التكنولوجيا المستوردة حتى تتلاءم مع الاحتياجات القومية ، وإذا لم يتحقق ذلك فقد التصنيع قدرا كبيرا من ذاتيته واستقلاله .

وتميل الكتابات الماركسية المعاصرة إلى إبراز مخاطر نمط التصنيع الرأسمالى خاصة بالنسبة للدول المتخلفة . ويبدو أن تجارب التصنيع فى الدول الاشتراكية (الاتحاد السوفييتى والصين وكوريا الشمالية وفيتنام) كانت أحد العوامل الهامة التى دفعت هذه الكتابات إلى تجيد نمط التصنيع الاشتراكى . وتصل هذه الكتابات الى حد التسليم بأن الدول الصناعية الاشتراكية تستطيع مساعدة الدول المتخلفة التى تنتهج الخط الاشتراكى فيما يتعلق بمشكلة ندرة رؤوس الأموال اللازمة للتصنيع . والواقع أن وجهات نظر لينين لا تدعم هذه القضية تماما ، ذلك أنه قد أكد أن الثورة السوفيتية كانت نتيجة لضعف التصنيع الرأسمالى الذى كان قائما فى روسيا القيصرية ، وبالتالى فان التصنيع الاشتراكى الذى تم فى الاتحاد السوفييتى بعد الثورة قد لا يكون النموذج الناجح الذى يجب أن تحاكيه الدول المتخلفة . وعلى الرغم من التنوع الأيديولوجى الذى تنطوى عليه الكتابات الحديثة التى تتناول العلاقة بين الإمبريالية والتصنيع فى الدول النامية ، إلا أنها تتجه عموماً نحو تأكيد الجوانب السلبية لهذه العلاقة[٦١] . فلقد أوضح إرنست ماندیل Mandel أن الإمبريالية تعوق التصنيع فى الدول المتخلفة ، ذلك أن القوى الإمبريالية تحاول فرض قيود على حركة التصنيع فى المستعمرات ، مما يضعف من قدرتها على منافسة السلع التى تنتجها الدول الكبرى ، وفضلا عن ذلك تخضع الدول المتخلفة لظروف اقتصادية عالمية احتكارية مما يدفعها لقبول شروط تجارية لا تتفق مع مصالحها القومية[٦٢] . على أن وجه نظر ماندیل لا تستطيع أن تفسر لنا العقبات التى واجهتها حركات التصنيع فى دول كمصر والهند خلال خمسينيات القرن

---

(٦١) Winslow, E;M; The Pattern of Imperialism; New York; Columbia University press; 1962.

(٦٢) Mandel; E; Marxist Economic Theory; op. cit. pp. 481-484.

العشرين برغم المزايا العديدة التى حصلت عليها داخل النظام الاقتصادى العالمى . كذلك نجد باران Baran يؤكد أن السياسة الإمبريالية البريطانية كانت السبب المباشر فى تكبيل حركة التصنيع فى دول ضخمة كالهند ، ثم يقارن بعد ذلك بين الهند واليابان ، ذاهبا إلى أن الأخيرة قد أحرزت نجاحا كبيرا فى مضمار التصنيع بسبب عزلتها عن العالم الرأسمالى وعدم خضوعها لخبرات استعمارية مباشرة[٦٣] . وإلى ذلك تقريبا ذهب أندر فرانك Frank حينما قال : « يصعب الفصل بين الدور الذى تمارسه الرأسمالية الاحتكارية فى الدول المتقدمة وطبيعة التخلف الاجتماعى والاقتصادى الذى تعيشه الدول المتخلفة . إنهما مترابطان ويشكلان نسيج النظام الدولى المعاصر[٦٤] » . كذلك أوضح فرانك Frank ان التصنيع الرأسمالى السريع قد تم خلال فترات العزلة النسبية عن السوق العالمية . غير أن الظروف الاقتصادية العالمية الاحتكارية لم تعد تسمح للدول المتخلفة بمثل هذه « العزلة الرائعة » ، لأنها (أى الدول المتخلفة) قد أصبحت – بالقوة – مستعمرات اقتصادية للدول المتقدمة . ويستشهد فرانك على ذلك بما حدث فى البرازيل التى تزداد فى تصنيعها إعتمادا على الدول الصناعية الغربية ، وإن بقية دول أمريكا اللاتينية تعانى – بدرجة أكبر من التبعية الصناعية بسبب ضعف هياكلها الاقتصادية وتخلف أساليبها التكنولوجية . أما الوسيلة الأساسية للتغلب على هذه التبعية فى نظر فرانك – فتتمثل فى تحطيم البناء الاقتصادى الرأسمالى عن طريق الثورة واستبداله ببناء اقتصادى اشتراكى يستند إلى العدالة والكفاية .

على أن تجارب التصنيع الناجحة فى مختلف الدول المتقدمة الصناعية قد أثارت بعض التساؤلات المتعلقة بمستقبل التصنيع وإمكانيات نجاحه فى الدول المتخلفة . من ذلك – مثلا – مدى ملاءمة نموذج التصنيع اليابانى لبعض الدول المتخلفة التى تعتمد على الاقتصاد الحر والديموقراطية الغربية ، وكذلك مدى كفاءة نموذج التصنيع الروسى فى توجيه حركة التصنيع فى الدول المتخلفة ذات التوجيه الاشتراكى . الواقع أن الإجابة على مثل هذه التساؤلات تتطلب توافر بيانات دقيقة عن النمو الصناعى الذى تحقق فى دول العالم الثالث خلال العقود القليلة الماضية . وفى حدود ما هو متاح لنا من بيانات يمكن القول إن بعض الدول النامية « الرأسمالية » قد شهدت خلال العقود الثلاث الماضية معدلات عالية نسبيا من النمو الاقتصادى . فيما بين سنتى

---

(٦٣) Baran, P. The Political Economy of Growth; New York; Monthly Review Press; 1962. pp. 144-150.

(٦٤) Frank; A;G; Capitalism and Underdevelopment in Latin America: Historical Studies of Chile and Brazil; New York; Monthly Review Press; 1969; p. 213.

١٩٥٠ و ١٩٥٤ وكذلك فيما بين سنتى ١٩٦٠ و ١٩٦٤ بلغ معدل النمو السنوى فى الإنتاج الصناعى بالنسبة للدول النامية حوالى ٩ر٦٪ فى مقابل ٢ر٥٪ بالنسبة للدول الرأسمالية المتقدمة و ٤ر١٠٪ بالنسبة للدول الاشتراكية المتقدمة . ومن الواضح أن هذا المعدل من الإنتاج الصناعى الذى حققته الدول النامية خلال العقود الثلاث الماضية يفوق بكثير ذلك الذى حققته الدول الصناعية الرأسمالية خلال القرن التاسع عشر . غير أن هذا الفارق بين المعدلين قد يتأثر إلى حد كبير إذا ما أخذنا فى اعتبارنا تفاوت معدلات النمو السكانى فى كل من الدول الصناعية المتقدمة والدول النامية . وعلى أية حال فلقد حققت بعض الدول النامية معدلات عالية نسبيا من الإنتاج الصناعى كما هو الحال بالنسبة للبرازيل وفنزويلا ومصر وفورموزا وكوريا الجنوبية وهونج كونج وباكستان[٦٥] .

وبرغم الدراسات العديدة التى تناولت تجارب التصنيع فى الدول النامية ، إلا أنها غالبا ما تعتمد على بيانات إحصائية تنطوى على قدر كبير من المبالغة . ففى بعض الأحيان قد يكون ارتفاع الدخل القومى من الصناعة راجعا إلى ارتفاع أسعار المنتجات الصناعية لا زيادة كمياتها . وإذا كانت بعض الدول النامية قد تمكنت من تحقيق قدر ملحوظ من الاستقلال فى مشروعاتها الصناعية ، إلا أن ذلك هو الاستثناء لا القاعدة . إذ أن النمو الصناعى السريع الذى شهدته معظم الدول النامية قد اعتمد على تصنيع بعض السلع بمساعدة رؤوس الأموال الأجنبية . وغالبا ما تكون هذه السلع من النوع الترفى الذى يلبى فقط احتياجات قطاعات محدودة من السكان[٦٦] . وفضلا عن ذلك فإن النمو الصناعى السريع الذى شهدته بعد الدول النامية لم يمكنها من تكوين عمالة صناعية متطورة . فبفضل « الجزر الصناعية » المتقدمة المنتشرة فى الدول النامية أصبح بالإمكان الإفادة من مزايا التكنولوجيا المتقدمة . وتشير بعض التقديرات الحديثة إلى أن عدد العمال الصناعيين فى جنوب شرق آسيا (بما فى ذلك الهند) لم يرتفع فى سنة ١٩٦٠ عنه فى سنة ١٩٤٠ . لذلك قد لا نبالغ كثيرا إذا ما قلنا إن التصنيع الذى تشهده معظم الدول النامية الآن يتم فى غياب برجوازية قوية وبروليتاريا واعية . وعند هذا الحد يمكننا الوقوف على واحدة من أهم النقاط الفارقة بين التصنيع فى كل من الدول النامية الآن والدول الصناعية المتقدمة خلال القرن التاسع عشر .

---

(٦٥) United Nations Industrial Development Organization; Industrial Development Survey; 1969; Vol. I.

(٦٦) Sweezy; P; the Theory of Capitalist Development; New York; Monthly Review Press; 1956; p.326.